الفصل الثلاثون

سهل تهامة

كانت المـدْخال هي البـوابة للبلاد المنخـفضـة، وقبل أن نعـبر من خلالـها في الصباح، صـعدت إلى قمة منخفضـة للتلال السفحية بالقـرب من معسكرنا، لأطل على البلاد. كما توقفـنا لفترة وجيزة، بعد أن بدأنا مسيرة اليـوم بقليل وعلى مسافة ميلين من المعسكر، عند مضـيق آخر فوق السلسلة الخارجية للغرض نفـسه. تقع قمة فيـفاء الآن ناحيـة الشمـال من موقعنا، بينـما تقع العارضـة والتي نرى قلعتـها من المضيق، ناحية الجنوب الغربي، كما كان العُر ناحية شرق الشمال الشرقي. وتقع قمة فضـة فوق مضيـقه وبه العمود الحـدودي الذي لم نقم بزيارته ناحية الشـرق. كانت منطقتـا حرم وناضر اليـمنيتين المحصنتين تقـفان ناحيـة الجنوب الشرقي. ويمثل الخط الذي يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشـرقي عبر مراكز الملاحظة الخط الفاصل بين المرتفعات والمنخفضات. كانت المرتفعات تفيض فوق المنخفضات إلى مسافة، غير أن سلسلة سلع التي تمتـد من مجرى جـازان في اتجاه الجنوب الشـرقي، تمثل جداراً فعـلياً من جـرانيت مرتفع يميل ناحـية السـهل. يكون الجانب الشـرقي للسهـل رفاً منخفضاً من قاعدة المرتفعات وعدداً من السلاسل المنخفضة الخارجية التي من خلالها تمر خطوط الصرف الرئيسة داخل السهل الساحلي الحقيقي.

يمكن مناقشـة تفاصـيل المنظر المباشر الذي يقع داخـل هذا الإطار في إيجاز. كانت خاصيـته المركزية هي بالطبع وادي جازان، داخل دلتا المدخـال، والتي فيها تتلقى معظم روافده، وفـيما يلي القشرة الرفـيعة للسلسلة التي يمر خلالهـا، ليبدأ

سيـره فوق السهل. يتصل وادي أجـبة، من سلسلة عفـرة، مع وادي جازان على جانبـه الأيمن، في الموقع الذي يخرج فيه من مـضيقه إلى داخل الدلتـا. يتصل به أوكان من مشرق على الجانب نفسه، قليلاً إلى أسفل، بينما يمتد وادي سرحة، من حرين والشرحاء في التـلال السفحية عند قاعدة فيـفاء، على امتداد سلسلة مكتف المنخفضـة، ليتصل مع الجانب الأيمن لجازان قـبل مروره خلال السلسلة إلى داخل السهل. تقف أطلال قلعة قديمـة عند طرف السلسلة في هذا الموقع، ويطلق عليها اسم الحصن. يخرج عرن من الجانب الآخر لهذا المنفذ، من عند الصفحة الشمالية لسلع يحرس دلابغ إلى داخل جازان فوق جانب السهل من المنفذ.

تقف قلعـة سرير التـابعة لبني حـريص بالقرب من رأس دلابغ على جـانب الجبل، بينما تقع قرية إيسان الصغيرة عند موقع تدفقه داخل الوادي الرئيس، على الجانب الأيمن لدلابغ مع بعض العـشش المبنية من الأعواد حول شـجرة نخيل تمور واحدة، عند مدخل شعيب مضرب من جهة الشمال، قريباً من غيل جازان الجاري الذي يظهر مرة ثانية عند منفذه من التلال ويستمر إلى مسافة إلى أسفل. تقع قرية بياضـة الكبيرة التـابعة لبني حريص قليـلاً أسفل هذا الموقع وعلى الجانب نفـسه، وهي مركـز سوقهم الرئيس. يـفصل دلابغ من الزاوية الشمـالية الغربيـة لسلسلة سلع، بين بني حريص وآل جـابر (التابعين لآل سلع) وحتى مجـرى جازان الذي يصبح بعد ذلك هو الحدود، ويكون قبيـلة آل حريص إلى الشمال وحتى الوصول إلى بلاد المسارحة في جوار سلاسل منخفضة هي حدج، ومدرة وخلوعة، وسقبان والتي ينساب وادي جازان عن طريقـها إلى الخارج نحو البحـر. كان لبني حريص مستوطنة أو مستوطنتان همـا وعرة وقعدى على الجانب الأيسر لمدخان، ولكن في

الحقيقة، باستثناء هذه المنطقة الصغيرة، فإننا لم نر إلاَّ القليل من بلادهم ما عدا الجزء الذي يرغبون في عدم حاجتهم إليه. رجانا ابن شنتف أن نسمح له بالانصراف ولما كان قد قدم الكثير من الأعذار لكيلا يرافقني في التلال، فقد تركته يذهب دون مكافأة.

نظرنا ناحية بلاد آل سلع من مضيق معول إلى سلسلتها الجميلة ذات التلال المواجهة للسهل وأخاديدها الجرانيتية الملساء. وارتفع عندها عدد من القمم البارزة، الواحدة تلو الأخرى، على امتداد الجبهة كلها وهي – سلع الحقيقية عند الطرف الشمالي، ومتلا (متلع)، ومسيدة (أم أسيدة)، المشبة (أم شبا)، ونجدة، وقفرة وهلابيهو – اسم غريب – والصِبْر. وقفت إلى البعيد في سهل تهامة ناحية الجنوب والجنوب الغربي للقمة البارزة المزدوجة الرأس التي تسمى العاصم وتكون سلاسل كل من غراب وشهرين إلى الغرب منها، ويقال إنها تتبع بلاد المسارحة. قادنا مسيل صغير من مضيق معول عبر غابة كثيفة إلى رأس مجرى يسمى الزُغْبَة، يجري إلى الأمام على طريقنا، إلى مسافة وقد ملأته حقول الدخن المسطبية التابعة لقريتي الجحيرة ومسبة المحليتين. وتقع، بعيداً داخل السهل، وقريباً من مجرى جازان قريتا أرقود وغوية الصغيرتين. وصلنا إلى نهاية هذه المزارع مع تضييق للوادي بين سلاسل صخرية بعد مسيرة صعبة استمرت نصف ساعة. كنا نمشي وذلك لأنهم قد أرسلوا لنا جمالاً لنقل العفش بدلاً من الحمير التي تحملنا كما توقعنا. كان بطن الوادي متخللاً بالبرك الفيضية أو الغيلية وعلى فترات. انفتح المجرى مرة أخرى على مسافة ٥٠٠ ياردة إلى أسفل على مزارع كثيفة على كلا الجانبين تتبع قريتين صغيرتين يكونان مسبة على الجانب الأيسر.

اعترضتنا مـجموعة من قروي الجوابرة حينمـا كنت أرصد بعض الاتجاهات عند ربوة وإلى جواري شبكة صيد الفراشـات وبندقيتي وكان رفاقي جلوساً في الظل إلى أسفل. وقد تقدموا ناحية مجموعتي وهم يحملون إليهم الخبز دون إلقاء التحية إلىَّ، أو حتى لم يكونوا منتبـهين لوجودي. تجاهلتهم لفتـرة، حتى إذا ما استقر جـمعهم حول الطعـام، أرسلت بصوت مرتفع بعض التعليـقات البذيئة حـول إدراكهم للكرم والضيافـة. أسرعوا بعدها نحوي بزخـم من الاعتذارات، وقد أحضـروا معهم سلة خبزهم ووضعوها أمامي وقد أعيـد تكوين الحلقة من جديد حولي لمواصلة أحاديثهم في وهج الشمس. قدمت إليهم من جهتـي فناجين شراب قشر البن من أحد ترامسي وكنت دائمـاً أحمـل معي ترمـسـاً ممتلئاً لرفـاقي، وآخـر غيـر مـحلّى وبلا حليب لشخصي. وقـد عبروا عن أقصى دهشتـهم بأن الشراب كان ساخناً. قضـيت معهم ساعـة زمان وأدركت أنهم كانوا لطـافاً. كانوا أول الأمـر خجولين، وكـانوا خائفين حينما شـاهدوا شبكة صيد الفـراشات التي لا بد وأنها بدت لهم وكأنهـا أحد أعلام الحرب. كانوا يقدرون البندقية حتى بندقية صيد الطيور الصغيرة هذه، وقد كانت هي كل السلاح الذي حملتـه على أنه سلاح، غير أن الشبكة حيـرتهم، وقد سبق لي أن لاحظت نفس التوقع الساخر هذا حولها بين أهل المرتفعات الذين كنت أقابلهم عرضاً خلال جولاتي.

أقبل شـعيب دومة على مـسافة الميل الواحد إلى أسـفل ومن ناحية اليـسار، وأقبل شعيب لحج بن جعـار من جهة اليمين ومعهما المساحات الشـاسعة للحقول التي بدأ فيها الدخن الصغير، ثم مررنا بقـريتي السودة وحابل المالكيتين الصغيرتين على جانبين متقابلين وكانت قرية الملحة الكبيرة على مسافة الميل الواحد إلى أسفل

وعلى الجانب الأيمن. كان بطن الوادي الرملي مشبعاً بالماء الذي يقع على عمق بوصات قليلة تحت السطح، الذي كان منقراً بثقوب مائية ضحلة، امتدَّ الوادي، من هذا الموقع وحتى العارضة نفسها، على مسافة الميل، على سهل مستوٍ، مستنقعي مع مساحات كبيرة لحشائش الحلفا التي تحتل مساحات في حجم حقول الدخن والتي وجدنا فيها نهراً جارياً واحداً.

لم تكن المسيرة طويلة فقط مدة ثلاث ساعات مشياً على الأقدام، إلاَّ أن الطقس صار ساخناً ولزجاً، ولذلك فقد احتفلت بعودتي إلى حضارة نسبية بالخلود مباشرة وبلا مقدمات، إلى إغفاءة القيلولة داخل عشة باردة نظيفة على هيئة خلية النحل مبنية من القش. كان ذهابي للنوم عند الساعة الثالثة مساءً ولم أصح إلاَّ عند الساعة الخامسة والنصف مساءً وقد انتعشت كثيراً بهذا النوم العميق وبالتجربة غير العادية بالنوم فوق سرير. غادرنا جازان قبل ستة عشر يوماً وباستثناء قيادتي للسيارة إلى أعدبي، فقد كنت أمشي على رجلي معظم الطريق، وفوق أصعب البلاد. لم أتحقق من شدة تعبي إلاَّ بعد أن استرحت من أعمالي.

كان أمير العارضة، عبدالله البشري مجازاً في هذا الأثناء، غير أن مندوبه كاتب الدخل الحكومي جاء لزيارتي بمجرد أن صحوت من النوم ليقدم لي كرمه ويريني معالم أرضه. لا أستطيع وبالكاد أن امدحه على الترتيبات التي قام بها لأجل أن أقوم بعملي في الحدود، أو حقيقة، لراحتي، كان قلقاً حين علم بحقيقة أنني قد سرت على قدمي كل الطريق من عند المدخال، لأعبر عن احتجاجي لفشله أن يؤمن لنا الحمير. توصلنا إلى نقاط ودودة سريعاً، ولكي يساعدني في جغرافية البلاد، فقد جمع حشداً من الخبراء المحليين على الشرفة المفرجة للبناء

الشبيه بالقلعة التي تؤدي وظيفة المركز الإداري وثكنات الشرطة. تناولنا كلنا معه وجبة العشاء بعد ذلك، وناقشنا أمور العالم بعد جلسة استماع للراديو خارج عشتي. اتفق معي على موقف بني حريص، ويبدو أنه يعتقد أن كل القبائل في منطقته فقيرة خاصة قبيلة قيس التي سببت لي الكثير من المتاعب. يمضغ بنو حريص، صمغاً محلياً، هو راتنج البشام (البلسم) وهي شجرة شائعة في التلال السفحية المنخفضة وفي الأجزاء العليا من السهل. كان سوق البرتقال والدقدق المستوردين، وقد أراني كميات للبيع بالجملة وصلت حديثاً إلى سوق العارضة، خارج استطاعتهم، ويذهب معظم هذه المواد إلى ساكني المرتفعات. يشبه الدقدق في رأي، الجبس، بينما تم شحن أوراق البرتقال التي يسمونها سرت وهي مسطحة، في بالات.

تقع العارضة على ارتفاع ٨٥٠ قدماً فوق سطح البحر وهي قرية كبيرة ممتدة تتكون من عشش على هيئة خلية النحل ولا توجد بها مبان، ما عدا القلعة، وهي بناء رباعي الزوايا تم إنشاؤه حديثاً من الصخر المحلي وتكسوه طبقة من الجبس ومزود بفتحات الرمي للدفاع. ومعظم سكانها من عناصر زنجية الأصل، وعناصر عربية مختلفة، مثل آل سلع، إلخ. تندلق القرية فوق مساحة كبيرة على الجانب الأيسر لوادي محته الذي ينحدر من بين قمتي نجدة وقفرة ليتصل مع زغبة أسفل القرية داخل مساحة من الحلفا شبيهة بالبراري الشبه مستنقعية. يتجه المجرى بعد ذلك ناحية الجنوب إلى سلسلة متقطعة تسمى ضهرة على بعد الميل الواحد ناحية الغرب ثم يتصل في نهاية الأمر مع منخفض كبير مشجر ويكسوه نبات الحلفا، يمتد ناحية الشمال الغربي ليتصل مع وادي جازان عند الطرف الشمالي للسلاسل الخارجية (حدج.. إلخ) التي قد ورد ذكرها. كانت مجموعة تلال معاصم، ناحية الجنوب، الواقعة في

السهل معالم أرضية بارزة، وأكثـر بروزاً هو تحنان وهو أيضاً أعلاها. يقع مركز خوبة الإداري إلى اليسار منها بالقرب من منفذ وادي خولب عند التلال، غير أنه كان بعيداً جداً ومنخفـضاً جداً مما جعل رؤيته صعـبة. كان شدع هو الوحيد البـارز داخل حافة الجبل، وبه برج مراقبـة على قمته، وبجواره قرية ذات حجم مـعقول. ارتفع بجوارنا وفي الاتجاه نفسه مرتفعات كل من هلابيهو وضابر ويفصلهما وادي كفف الذي ينحدر من المرتفعات، بينما كان وادي دحن هو الخـط الفاصل بين ضابر، وشدع وينحدر من رأسين في التلال عبر مسيل كل من رجـاف وملحى. أمكننا رؤية حدبة جحفان، إلى الخلف وإلى البعيـد، ناحية الجنوب الشرقي، والتي سنقابلهـا مرة أخرى حين نواصل فحصنا للحدود.

لم تكن العارضة مكاناً مثيراً ولم أكن آسفاً لمغادرتها قبل ظهر اليوم التالي، وأنا مسافر على شاحنة كانت قد أحضرت لي بريدي من جازان. وقد انتظَرتْ بتوجيهات من محمد بن مـهدي لتقلنا جميعاً إلى هناك. كـانت مناسبة للتغيير جـميلة مقارنة بوسائل النقل العديدة التي كنا قد اعتدنا عليها، غـير أن هذه الفرحة قد أزالتها حالة الطريق الذي سافـرنا فوقـه- وهو الطريق الرئيس من أبي عريش إلى جـازان. كان الجزء الأول منه جيداً كبقيته غير أن عـبور حوض العارضة خلال مسافة الميل الواحد الذي يفصلنا عن سلسلة ضهـرة كان صعباً ووعراً، كانت السلسلة نفسـها عبارة عن بروز لميكا شستية مع عروق كوارتزية التي غطت قطعها المتآكلة السفوح. كان الاتجاه العام للطريق، فوق بلاد تلية سـفحية نموذجية مغطاة بغابات جـيدة، ناحية الجنوب الغربي، داخل أو على امتداد حوض محـره العريض الذي انتشرت من حوله المزارع معظمها حقول تم حرثـها لمحصول الربيع من الدخن. تسمى أرض الغابات والوادي

باسم بثـان ويبدو أنهـا تكون جـزءاً من حوض أكـبر يتـضمن مـجرى جـازان إلى الشمال، والذي كان شريطه الفعلي مميزاً باستمرارية ما يحفه من شجيرات وأشجار. توقفت الشاحنة مرة أو مـرتين أثناء السير الصعب هذا، غير أن السفـر تحسن حينما اقتـرب الوادي المشترك من سلسلة متـعارضة منخـفضة والذي عبـرناه من خلال ممر مكشـوف. كان علينا أن نطوف حـول هذه السلسلة مارين فـوق سهل من حـصى تكسوه غـابة حتى طرفـه الجنوبي حيث توقـفنا لمراجعـة الموقف. لقد غطيـنا خلال خمس وأربعين دقيقة مسافة لا تزيد عن عـشرة أميال فقط حتى هذا الموقع، كما أن عداد قياس السرعة لم يكن يعمل.

يمتد أمامنا وادٍ عـريض كثيف الأشجـار، يقع بين مجرى جازان على مـسافة نصف الميل على يميننا ووادي المشـرف، وهو استمـرار لكفاف، على مسـافة الميل الواحد على يسـارنا، ماراً ببـروز منعزل لصخـور جرانيتـية تسمى دغم. اسـتدار مجرى المشرف وأصبح أمامنا، ووصلنا خلال عشرين دقيقة إلى جانبه الأيمن حيث توقفنا، بينما بحث مرشدانا عن الطريق داخل الغـابة والذي كانت السيول الأخيرة قد أزالـته. يتصـل المشرف مع وادي جـازان فوق ممر فـقه صقـبان، التي يـجري مجراها الرملي العـريض بين مروج الحلفا التي تحفها الغابة عـلى الجانبين. يتعرج كل من الغابة وطريق السيارات صاعدين سفحـاً لطيفاً لسلسلة حدج - صقبان إلى حيث ممر فتوة. تقع وغرة أو الينابيع الحارة لمشرف، على بعد ميلين مع اتجاه أسفل الوادي على الجانب الأيمن، والتي توجهنا إليها بالتجول سيراً على الأقدام، تاركين الشاحنة لتعبر المجرى حينمـا يجد الرجال الطريق وأن ينتظرونا على السفح. تباعد النبعـان اللذان يكونان المنتـجع المائي المعدني الذي يؤمـه الناس على مسـافة ٣٠٠ ياردة عن بعضهمـا البعض فوق مساحة تكسوها نبات الحلفـا وبعض أشجار العدن

الجيدة النمو والكثير من أجمات الغابة الخفيضة. يفور الماء على شكل فقاقيع، كأنها مرجل فوق مساحات من طين أسود لزج ينتشر حول المركز في بريكات مزعجة وتحوطها ترسبات الملح. كانت المياه شديدة السخونة في المركز ولم يكن معي مقياس الحرارة حينها لقياس حرارتها، والتي لا بد أن تكون أعلى كثيراً من حرارة مياه ينابيع ضمد، لأنه من المستحيل أن يضع المرء يده داخلها لأكثر من ثوانٍ معدودة. كانت المياه مالحة إلى درجة شديدة ويستخدمها الزوار فقط للغسيل والاستحمام، وليس للشرب.

عبرنا المجرى ثم اخترقنا الغابة لنصل إلى الطريق، حيث جلسنا في انتظار الشاحنة التي علقت في الرمال بعد أن وجدت الطريق. لقد استغرق انتظارنا مدة ساعتين، غير أننا قد استفدنا من هذا الوقت. وحينما وصلتنا الشاحنة استغرق وصولنا إلى ممر فتوة خمس دقائق فقط وهو على ارتفاع ٧٥٠ قدماً فوق سطح البحر. تكوَّنت الغابة هنا من أشجار البشام والطلح، وهي قزمية وبائسة، وقد تعلَّم الطريق خلالها بأكوام من حجارة، واكتشفنا بعد مسافة أن الطريق قد تم سده من الجانب إلى الآخر بجذع شجرة كبيرة وثلاث كتلات من الصخر بواسطة البدو على سبيل الدعابة. اقتربنا تدريجياً من مسيل يحرا، الذي ينحدر من سفوح حدج على يسارنا، وتوقفنا لأداء صلاة الظهر في وادي معاين وهو استمرار لمسيل يحرا، بالقرب من مسطح مائي كبير في بطنه. يخترق هذا المسيل أرضاً بركانية من سلاسل وفوهات إلى الغرب من سلسلة حدج صقبان، وكان السفر فوقها صعباً إلى درجة بعيدة، ونحن نسير على حافة قاعدة الحمم. كانت الفوهتان الرئيستان الهرميتان هما قرعة شامية وقرعة يمانية ويرتفعان حوالي ١٥٠ – ٢٠٠ قدم فوق السهل. مررنا إلى جنوب قرعة يمانية فوق طريق نظيف جزئياً في حقلها البركاني،

وعبـرنا إلى الجانب الأيمن لمعـاين الذي يدور هنا ناحـية الجنوب ليتـصل مع وادي أملح وهو في طريقه إلى البحر عند مضية.

واصلنا سيرنا خلال غـابة البشام الكثيفة متجهين إلى السـهل الحقيقي، الذي بدأ لنا من هذه الأرض المرتفعة أنه مستـو ويكسوه غطاء لطيف أخضر. وصلنا بعد نصف ساعة لأولى القرى على الطريق عند حافة الحرة (أرض بركانية). كانت هذه هي قرية راح، قـريـة صغيـرة من ٣٠ - ٤٠ عشـة من الأعواد، تسـكنها مسـتـعمرة من آل أبو عريش وقد بدأت مدينتهم الأم ظاهرة للعـيان من هنا ناحية الغرب. تقع قرية راح على ارتفاع ٤٠٠ قدم فـوق مسـتوى البحر، وتمـتد في الـسـهل الذي يفصـلها عن أبو عريش بالعديد من القرى التي تماثلهـا في وسط أرض واسعة لزراعة الدخن. لقد تمكنت من حـصر سبع من هذه القـرى باسمـائها، وتعد هذه القـرى مجـرد ضواحٍ للمدينة العظيمة وتتجمع كلها تحت اسم عريشية. برز زوج من توأم بركاني إلى البعيد ناحية الجنوب ويسمى قمتين. ويبـدو أن هذين إلى جانب مخروطي القرعة والعكوتين على حافة رف تهـامة الداخلي تمثل خطاً لاضطرابات بركانية حـديثة. وتوحي الينابيع الساخنة في المشرف بنشاط كامن تحت السطح.

نحن الآن على مـقـــربة من أبي عـريش وأن الأهالي الزراع المحلـيين لديهم إحساس ضيق باحترام أشيـاء مثل الطرق، ولا مانع لديهم من سد الطرق أو الحفر عبرها في خدمة الزراعة. لم تكن متاعبنا محدودة ونحن نشق طريقنا عبر الحقول، وليتم تتـويج كل هذا، فقد انقلبت الشـاحنة فوق مسطبـة ضيقة على بعـد خمس دقائق من المدينة. كـانت صدمة سـقوطه غيـر المتعمـد قد عطلت نظام استـهلاك البنزين في الشاحنة خارج إطار العمل، وكان علينا أن ننتـظر حتى تتم صيانته قبل الدخول إلى مدينة أشرف. كـانت الشمس قد غربت تماماً حينمـا تحركنا بالشاحنة

مروراً بجوار المسجد الكبير لنمر من خلال صفوف العشش التي تشبه خلايا النحل إلى حيث المكاتب الحكومية التي تم حجز مكان لنا أمامها لإقامة معسكرنا. كان الضغط علينا شديداً أن نقبل الضيافة داخل بناء واسع تم تنظيفه وكنسه وتلميعه لاستقبالنا. رفضت هذه المداهنات، وذلك لأنه سيكون من الواضح أن النوم أسفل النجوم أفضل في ليالي تهامة اللطيفة. وأحاط بنا حشد كبير، مئات الرجال والنساء والأطفال من داخل المدينة، وبرغم الظلام فقد استقروا حولنا يلحظون تحركاتنا باهتمام شديد. اعتذر لنا الأمير لعدم استطاعته مقابلتنا في الطريق، واعترف بأنه كان منزعجاً جداً حين علم بأنه لم يكن في استقبالنا حرس شرف ليحيينا حين قدومنا، ولا حتى فريق شرطة يراقب مرورنا من خلال العشش الكثيفة التي تشبه خلية النحل التي تكون معظم المدينة. تصافى الأمر بيننا وبينه سريعاً واحتفيت بالأمير ورفاقه، دون ذكر الحشد الكبير، بالاستماع إلى الراديو، للأخبار والموسيقي بينما كانت المطابخ تعمل بنشاط لإعداد وجبه عشائنا. جلسنا بعد ذلك نتحدث ومدة طويلة حول أبو عريش حتى الساعة الثانية صباحاً، ثم عمدت إلى فراشي لأنام بعد أن سجلت ملاحظاتي حول النجوم واعتقد أنني أول أوروبي يضع قدمه في هذه المدينة.

ترتفع أبو عريش إلى ٢٥٠ قدماً فوق سطح البحر، وقد كانت لها أيامها الأفضل في الماضي، وحكماً بحقولها الواسعة المدمرة، فلا بد أنها قد غطت مساحة أكبر كثيراً مما هي عليه حين زيارتي لها. أعتقد في تقديري أن طول المدينة يصل إلى ميل واحد، في اتجاه شمال الشمال الغربي إلى جنوب الجنوب الشرقي، وكذلك عرضها في أوسع مواقعه ويشبه انتشارها الطائرة الورقية. كان جانباً من هذه المساحة تمثله الأطلال، غير أن معظم الأطلال تقع خارجها على كل الجوانب

وكلها مهـجورة تماماً. يقدر عدد سكان المدينة رسمـياً بحوالي ٣٠٠٠ رجل بالغ، وهذا يعادل عـدداً إجمالياً يقـدر بـ ١٢٠٠٠ نسمة معظمـهم يقطن في عشش من أعواد الشجـر، ذات شكل خلية النحل أو غيره من الأنماط. ومن حـولها فناء من سور من أعواد الشجـر (عريش، جمع عرايش). كان أربعة أخـماس المساكن من هذا الطراز، وكانت البقـية مبنية ذات واجهة من الجبس فـي نقش جميل جذاب. لاحظت هذه الظاهرة في صبيا أيضاً !.

كانت كل المسـاجد من بناء معظمـه من البازلت، وقد وُضِـع في بلكات خشنة دون أسمنت وفي طبقات متبـادلة من لونين أحدهما شاحب والآخر داكن، بأسلوب جذاب. كانت بها ثلاث أو أربع قبب فوق الأعمدة، كان للمسجد الذي دخلنا المدينة من جانبه قـبتان لهمـا أبعاد كبيرة، إلاَّ أنه لـم يكن المسجد الرئيس. كانت الفـخامة تعود للمـسجد الجـامع الذي تم بناؤه في القرن الحـادي عشر الهـجري (الذي يوافق القرن السـابع عشـر الميلادي) وقد بناه الإمـام منصور بن عمـاد الدين، وهو سلف الإمام يحيى إمام اليمن. كان هنالك مسـجد ثالث مهم هو مسجد أشرف، يقف في المدخل الغربي للمدينة في وسط حقول واسـعة مدمرة ولا يزال تؤدى فيه الصلوات. كانت صلابة هذا المسجد أيضاً سمة بارزة له. كانت جدرانه الخارجية ضخمة، وكان فناؤه المكشوف لـلسماء، ذا أبعـاد أصغر، وكـانت أرضيتـه ملمعـة وهي من الجبس والأسمنت. تمتد على جانبه الشمالي أعمدة منخـفضة من ثلاثة صفوف سميكة مبنية من طوب مجفف مكونة ست مسافات، وتحمل فوقها ١٨ قبة تقف فوق أقواس شبه معلقـة. تقع بجوار هذا المسجـد قلعة أشرف القديمـة وتسمى دوجاني، مدمـرة تماماً مثلها مثل كل القلاع الصغيرة التابعة للفـترة الزمنية نفسها، فهي عبارة عن أكوام من حجـارة. يوحي انتشار الركـام والحجارة المنتـشرة في هذا الموقع وفي مـواقع أخرى

بفكرة تدل على اتساع المدينة أيام أوجها، وقد قيل إنه كان بها ما يقدر بمئة وستة مساجد ومئة وستة آبار، والتي بقي منها ٣٠ و ٢٥ بالتوالي، بلغ عمق الآبار في المتوسط سبع عشرة قامة في أبو عريش والقرى المجاورة.

تم تدمير معظم المدينة وتم حرقها، وكانت هنالك محاولات لإعادة البناء، بدأت في بطء وتوقفت تماماً هذه الأيام. استولت الحكومة على قلعة أشرف القديمة التي صمدت أمام الحرائق لتجعل منها مقر الرئاسة. لقد تم تطويرها لكي تستخدم بواسطة الموظفين والشرطة وكانت بناءً مهيباً بحصون زواياه. كان معظم أهل أبو عريش مزارعين، يقومون بزراعة الدخن والسمسم في الحوض الواسع الكبير الذي يقع بين وادي جازان ووادي الأملح ويبعد كل منهما حوالي ميلين من المدينة. كانت صناعة الناس الوحيدة هنا هي إنتاج الزيت، والذي توجد لإنتاجه العديد من المعاصر ذات الطراز البدائي، تديرها جمال معصوبة الأعين. يسمى الدهن الذي يستخلص من السمسم في الأسواق باسم سلت. كان التجار الرئيسيون في أبو عريش من أصل حضرمي كما كان البهكليون في جازان.

كان العمدة المحلي، أو شيخ البلد، هو هادي سعيد، وهو الرجل الرئيس لعنصر المسارحة الكبير في مجموعة السكان. كان رجلاً طاعناً في السن ولطيفاً وله اتجاهات في الكرم والضيافة جذابة جداً، جاء بشخصه بمجرد وصولنا ويصحبه إناء ضخم مملوء باللبن الرائب وحزم ضخمة من الموز. وجاء مرة أخرى عند الصباح ومعه سرب من الخدم يحملون أطباق الخبز والبيض والعسل وقحاف من اللبن الطازج واللبن الرائب، كان يبدو وكأنه يفتقر للحاسة الجغرافية تماماً، وكان جاهلاً بدرجة مدهشة للأسماء حتى أسماء القرى المجاورة، دعك عن العلامات الأرضية التي تبعد عنه. غير أنه عوّض عن كل هذا بمعلوماته الموسوعية عن تاريخ

المدينة، والذي أوصى علينا بقراءة كتاب عنه بعنوان «نفح العود في تاريخ ابن سعود». الذي نشر في بداية القرن التاسع عشر (١٢١٨هـ) بواسطة الشيخ محمد ابن عبدالرحمن البهكلي، ولعله من أسرة جازان[١].

تنتمي كل هذه المقاطعة في الأصل إلى بني سفيان (التابعين للحجاز) والذين تم إبعادهم بواسطة آل حرث القحطانيين، وأبعد هؤلاء بدورهم، بواسطة المسارحة، الذين لا يزالون يحتلونها، ولربما جاء هؤلاء المسارحة من الشمال من حول المدينة. لم تظهر أبو عريش للوجود إلاَّ في القرن الثالث عشر الميلادي (القرن السابع الهجري)، حينما كانت قحيفة، ذات الـ ٥٠٠ معصرة للزيت، على شواطئ وادي جازان، وحينها كانت هي عاصمة المقاطعة، حين احتلها الزيود اليمنيون الذي جعلوا من كل المناطق في تهامة بين وادي بيش في الشمال ووادي تعشر في الجنوب محافظة إدارية تحت اسم المخلاف السليماني. هاجر إلى هذا الموقع، وقد شعر بالملل، الشيخ أبو شملة من علماء قحيفة، وأسس لنفسه ولاسرته «عريشة» واحدة في هذه القفار، وبدأ يستقبل التلاميذ للدراسات الدينية على مذهب الإمام الشافعي على ما يعتقد والذي لا يميل إليه الزيود. ازدادت شهرة اسمه وجاء تلاميذه مع أسرهم واستقروا من حوله، وأصبح اسم القرية التي تكونت (أبو عريش). لا يزال يعيش هنا نسل المقيم الأول وقد أوضحوا لي موقع عريشته الأولى وتبعد حوالي ٣٠٠ ياردة من مبنى الحكومة. لقد نهضت أبو عريش كما نهضت صبيا في الأزمان الحديثة، لتكون مدينة عظيمة حول نواة عريشة العالم، وسقط كلاهما في هوة النسيان تحت ظلال الشريعة.

(١) الصحيح أن اسم هذا الكتاب هو « نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود » من تأليف عبد الرحمن بن أحمد البهكلي، قامت دارة الملك عبد العزيز بنشره بتحقيق محمد بن أحمد العقيلي سنة ١٤٠٢هـ (المراجعون).

ظلت أبو عريش ومقاطعتها تحت سيطرة الزيود، دون حوادث أو تميز، لعدة قرون، ويعزى أهميتها إلى أحد حكام تلك الممالك في القرن السابع عشر، كمركز محافظة، ثم تجميلها بالمباني الضخمة، الشريعية منها والعسكرية. يبدو أن تأثير الزيود قد انحسر خلال الجزء الأخير من القرن الثامن عشر وذلك حينما تحدى الأشراف الزيود – الذين استقروا هنا غير أنهم أصلاً قدموا من اليمن – وانتزعوا منهم الحكم. كان على رأس ثورة الأشراف الناجحة الشريف محمد بن أحمد آل خيرات، الذي نصب نفسه أميراً على المخلاف السليماني وعاصمته أبو عريش. وخلفه ابنه حمود[١] الذي حكم في نهاية القرن وحارب السعوديين في أولى أيام القرن التاسع عشر تحت القيادة الذكية لسعود العظيم[٢]. خلف حمود عمه الشريف علي بن حيدر، الذي جاء بعده ابنه حسين، وجاء بعد حسين ابنه حسن الذي انتقل منه الحكم إلى خاله الأول حسن بن محمد بن علي. احتفى معظم هؤلاء الحكام بذكرى فترة حكمهم بإضافة مبان ذات مغزى ديني أو دنيوي لعاصمتهم النامية.

جرى كل شيء على أحسن حال بالنسبة للبلاد وللحكم، حتى عهد حسن ابن حسين حينما وقع التمرد داخل البيت الأميري ورفع حسن بن محمد السلاح في وجه خاله. تدمرت خلال القتال الذي نجم عن إحدى القباب الثلاث التي تميز المسجد الزيدي الكبير، بقذيفة وسقط الأمير الحاكم في المعركة. اعتلى المغتصب العرش في ١٨٦٩م ليستمتع به لوقت قصير. كانت قناة السويس قد تم افتتاحها

(١) حمود بن محمد بن أحمد الشريف من أسرة آل خيرات، كان تحت لواء آل سعود في دورها الأول ثم ما لبث أن انقلب عليهم، وهو المعني من كتاب عبدالرحمن البهكلي المسمى: (نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود). (المراجعون).

(٢) أي الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود. (المراجعون).

لحركة النقل، ومن خلالها جاء الأتراك في عام ١٨٧٢م لاحتلال عسير واليمن. استمر حكمهم حتى الحرب العظمى حينما سيطر الأدارسة بخروج الأتراك حتى خرجوا هم أنفسهم بدورهم بواسطة ابن سعود. انحدر في عام ١٨٧٠م محمد بن عايض، حاكم مرتفعات عسير من التلال للهجوم على المغتصب حسن بن محمد، وقد تدمر جزء كبير من العاصمة خلال العمليات، إلاَّ أن حسن ثبت في موقعه وفشل الهجوم. استولى الأتراك على المدينة من الأشراف ويبدو أن الأتراك قد اختفوا بين طيات النسيان. ولم تقابلني أية آثار لهم بالتأكيد.

هكذا كانت القصة الحزينة لـ (أبو عريش). غادرناها ظهر العاشر من يناير وتركناها خلفنا، منطلقين من مسجد أشرف فوق حزام واسع لصحراء قاحلة تمتد شمالاً وجنوباً بين الواديين. تعطلت السيارة بسرعة وتأخرنا مدة ربع الساعة. ثم مررنا بعشش القويعية على اليمين وتوقفنا قليلاً لنفحص البئر الجميلة، بئر مروخة التي تقع بجوار الطريق، وعمقها سبع عشرة قامة. أحاط بفوهة البئر إطار من بلكات بازلتية لحمايتها من التلوث. كان أعلى البئر مربع الشكل، مبنياً من طوب نحيل صغير، بينما أسفل الفوهة كان الصهريج مستديراً، وكانت جدرانه مغطاة بالأسمنت. تعطلنا مرة أخرى بسبب خلل في السيارة مدة نصف الساعة ونحن نقترب من قرية مخاضرة -يسمى بحرة أيضاً-، في حضن حقولها في وسط غابة على جانبي أحد فروع مجرى جازان. كانت البلاد على الجانب القريب عارية، مسطحة، ورملية، قفر به شجيرات خفيضة قليلة جرى من خلالها الطريق.

كنا نقترب من قرية الخشابية الكبيرة وبعد مرورنا بقرية أسيلة الصغيرة على يسارنا، حينما نفد البنزين وتعطل السير. لا يمكننا مواصلة السفر بلا بنزين، وكان علينا إرسال رسول إلى القرية لاستئجار حمار نصل به إلى جازان. ولكي أعوض

سهـري لوقت متـأخر من اللـيل في (أبو عريش)، فـقد عـمدت إلى إغفـاءة في الصحـراء العارية صـحوت منها عند السـاعة الثـالثة والنصف بوصـول قافلة من الحميـر. لم تكن هنالك حدود لكرم ساكني قـرى هذا السهل. استجابـوا بعفوية وقد أخـافتهم فكرة قـضائنا الليلة في الصحـراء، وبمجرد أن علم سكان الخشـابية بأحـوالنا من رسـولنا، حتى قـامـوا بجمع حـمـيرهم مـن المراعي وأرسلوها لنا لإحضارنا إلى القرية لقضاء الليلـة. قررت ألاَّ أغادر السيارة، مع شكري لدعوتهم هذه، وذهبت الحمير لتعـود لنا بالماء والطعام. تمكنا الآن من قضاء الليلة، وتناولنا غداءً ممتازاً من سخاء القرية، متـضمناً شاة وخبز الدخن. هبَّ نسيم جنوبي غربي وحمل الرمال بصورة غير مريحة في وقت مـتأخر من الظهر، غير أن الليلة كانت لا تزال باردة وهادئة، وكـان الإحسـاس مثيـراً أن ينام المرء مـرة ثانية فـوق رمال حقيقية. قام على العناية بنا وفد قروي كبير، ومعهم المؤن واقترحوا بكل الجدية أن تدفع الشاحنة بالأيدي إلى حيث الحماية لها داخل عششهم، كانوا جمهوراً لطيفاً، جذابـاً، ارتدى الكبار منهم الطربوش النـاعم النسيج الذي جلب من مكـة ومدن تهامة فـوق رؤوس مقصوصـة الشعر، أما الشبـاب من الرجال فقد كـانوا كاشفي الرؤوس، وبدت شعورهم المجعدة كثيفة الدهن.

كنت نائماً حـينما وصلت إمـدادات البنزين على ظهور الحـمير عند السـاعة الرابعة صبـاحاً. كان هذا عرضـاً مثيراً للدهشة للكفـاءة من كل الأبعاد. لم تكن بداية رحلتنا مبكرة وذلك لأن الشاحنة تحتـاج إلى صيانات أخرى. قمنا بإزالة كل الشمـعات وغمرناها في البنـزين ثم أشعلناها للتسـخين، تناولنا خلال هذا الوقت طعام الإفطار تحت سـتار من نسور، كـانت تنتظر انصرافنا لتلتـقط العظام العارية المتبـقيـة من وجبة مـساء الأمس. واصلنا سـفرنا خلال سـحابة من دخـان أسود

ووصلنا القرية خلال خمس دقائق، لنتقدم بالشكر لمضيفينا ولنوزع عليهم بسخاء مقابل كل ما نلناه منهم.

نستطيع من هذا الموقع رؤية القلعة على رأس تل جازان. بينما حصرت وسجلت ما يصل عدده. إلى الدرزن (الدستة) من القرى كلها داخل نصف قطر طوله ميلين لهذه المستوطنة الرئيسة. كانت كلها تنتمي إلى قبيلة المسارحة إلاَّ أنه يوجد فيها عنصر أفريقي يعد داخل الكثافة السكانية. امتدت مساحات شاسعة للدخن من حولنا فيما يلي الحاجز الرملي الذي كنا قد تركناه من ورائنا، ولم يكن هنالك خيار آخر للشاحنة غير أن تشق طريقها داخل الحقول والنباتات الواقفة التي حجبت الطريق تماماً.

لا يمكن مقاومة المصاطب من الأمام، غير أن السائق مدرك للحيلة التي تجعله يدخل إلى المصاطب على نحو مائل دون تخفيف السرعة للدرجة التي تعرضنا خلالها لأكثر من مرة لخطر الانقلاب. أدت إحدى المصاطب إلى تعطلنا، غير أننا تمكنا من مواصلة السير عبرها، وسرعان ما وصلنا إلى قرية وسيلي وقد أحاطت بها توابع عديدة في حوض حفرته السيول، ويمسك في بعض أجزائه ببرك مملوءة بالمياه. كنا الآن على ارتفاع ١٠٠ قدم فوق سطح البحر. وكانت المحاصيل وافرة كعادتها، متضمنة نسبة معقولة من الدخن الصغير. كان مسجد وسيلي جميلاً يقع بين عشش من القش وكانت نسبة سكانها من الأطفال هائلة وقد خرجوا ليشاهدونا ونحن نعبر، ويحيوننا دون انتباه بأن سيارتنا -التي تنطلق بصورة جنونية لتحاشي المطبات- هي مصدر خطر حقيقي. كان كل الصبية عراة، وارتدت الفتيات -وهن في نفس الكثافة العددية- خرقاً حول خصورهن. كانت طيور بلشون البقر بوفرة داخل المحاصيل وقد أثارها ضجيج مرورنا فطارت لفترة في سرب ضخم.

خرجنا بعد مسافة ميل واحد فيما يلي هذه المجموعة من المناطق المأهولة من منطقة الزراعة، ودخلنا صحراء ذات شجيرات خفيفة، متموجة الرمال، تتخللها أشجار الأراك إلى جانب المتاريس ونبات القا، وهو عشب فاقع الخضرة وأزهاره صغيرة صفراء. وصلنا فيما يلي هذه إلى قرية عجيبية الصغيرة وبئرها التي يبلغ عمقها ست قامات ذي الصهريج الدائري المبني بالأسمنت وقد اشتركت في زراعة أرض متقطعة مع قرية بخشة على بعد. كانت القفار التي تعوي هي التالية، وقد تكسرت بلا نظام بالعديد من التلال الرملية التي تكسو قمتها الأجمات ونبات السواد الداكن الخضرة في مجموعات كبيرة في الأرض المنخفضة. كانت قيادة السيارة هنا مرعبة ونحن نمضي إلى الأمام وندور لنتحاشى كتل النبات وقد أطلق راديتور السيارة الذي يغلي سحابة من البخار. توقفنا مرة لتجديد مياه المكينة، وتوقفنا مرة أخرى، لانغرازنا في الرمل. لا نستطيع زحزحة السيارة، فذهبت سيراً على الأقدام ناحية مبانٍ ليست بالبعيدة على أمل أن أدبر نجدة بالحمير توصلنا إلى جازان.

وصلت إلى المكينة وقد اكتسبت اسمها هذا من مضخة معطلة وبيت المكينة تابع للنظام التركي بجوار البئر الذي غمرته الرمال. كانت الفكرة أصلاً هي أن يضخ الماء من هنا إلى جازان لتوفير العمل الضخم الذي يتطلبه نقل الماء بواسطة الجمال والحمير، إلاَّ أن المشروع فشل لسبب ما، أكثره احتمالاً أن المضخة قد أنضحت البئر حتى جفّ، وتم ترك المكينة لتواجه مصيرها. رفعنا أعيننا، ونحن جالسين نتوقع أن نسير على الأقدام إلى جازان. ورأينا ثلاث سيارات قادمة من ذلك الاتجاه اتضح أنها تتبع مجموعة عبدالله بن الوزير[1] حاكم الحديدة وتهامة

(١) قاد تمرداً عام ١٩٤٨م، بعد خدمة سنوات طويلة واحترام للإمام يحيى، ضد سيده الذي اغتيل بصورة بشعة. نصب عبدالله نفسه ملكاً على اليمن، غير أنه لم يجد إلاَّ القليل من الدعم من شعبه. سحق ولي العهد سيف الإسلام أحمد المؤامرة وألقى القبض على عبدالله بن الوزير ومعاونيه الرئيسين وتم شنقهم جميعاً. (المؤلف).

اليمن، الذي كما كنت قد سمعت في العارضة وأبو عريش أنه سيقوم بزيارة نظيره في جازان ليقنع نفسه وحكومته بأن السلطات السعودية تنفذ اتفاقية ١٩٣٤م متوقعاً أن كل القلاع التي تقع داخل مسافة ٥ كيلومترات من الحدود على الجانبين قد تم نزع السلاح منها. رأيته آخر مرة في الطائف في صيف عام ١٩٣٤م حينما كان ممثلاً لحكومة اليمن لمحادثات السلام التي نتجت عن حرب الأسابيع الستة. كان على علم -بلا شك- بنشاطاتي فيما يخص رحلتي لكل من شبوة ونجران ومسح الحدود. كان لدينا الكثير لنناقشه خلال الأيام المقبلة في جازان.

تبادلنا في هذه الأثناء التحايا الودية وصرح لي بأنني قد كبرت كثيراً منذ آخر مرة رآني فيها. ربما عزاءً منه بلا وعي لنوعية الحياة التي كنت أعيشها خلال الثماني أشهر الماضية. يرفرف العلم اليمني الأحمر فوق سيارته الجميلة فورد سيدان ذات الثمانية قطع سلندر وعلى غطائها السيف وخمس نجوم، كما عرض عليَّ في كرم شديد أن استخدم إحدى الشاحنات لنقل شخصي وفرقتي والعفش، كلنا، إلى داخل جازان. قبلت العرض، وتركته ليقوم بحملته التفتيشية، وانطلقنا تجاه الوطن.

لاحظت جمال جازان وهي قادمة متجهة إلى الآبار، أثناء سيري، عابرة الدلتا الملحية الواسعة، جاهدة أنفسها خلال السراب الذي انعكست صورتها مقلوبة فيه. لم يمض كثير وقت حتى مررنا بها لندخل مرة أخرى البوابات الكريمة لمنطقة ابن ماضي. صرفت معظم أوقات اليوم، باستثناء تناول غداء متأخر في مقر سكني القديم وعشاء مع الأمير في المساء، في قراءة بريد الوطن الضخم. كان بريداً متأخراً، أرسل لي من جدة في الثالث من سبتمبر، لأستلمه في نجران، وأعيد إرساله من هناك ليعاد لي مرة أخرى هنا، بواسطة السيارة التي سأستقلها في وقت

لاحق للسفر إلى جدة ومكة. انكسر المحور الخلفي للسيارة -للأسف- وكانت قليلة المنفعة لي، غير أن هذا كان في هذه اللحظة، من هموم المستقبل. يرجع تاريخ بريدي إلى شهري يوليو وأغسطس المنصرمين. ثمانون رسالة من أفراد أسرتي فقط، غير أنني حينما فرغت من قراءتها أصبحت على علم بأخبار الأسرة حتى منتصف نوفمبر.

استغرقت هذه الرحلة من المرتفعات إلى جازان ٢٣ يوماً، ورحال الزمن تمضي سريعاً، إذ كان عليَّ أن أعود إلى مكة للحج. بقي لدي الكثير لأفعله قبل أن أبدأ رحلة العودة، ولا أستطيع إضاعة الوقت في جازان. كان لدى ابن ماضي توجيهات من الرياض بلا شك لتحاشي أي تأخير في إكمال عملي، وهو ليس بالرجل الذي يترك الأعشاب تنمو تحت قدميه. تعرض في ذلك المساء الذي وصلت فيه إلى موضوع مغادرتي، وأخبرته بأنني مستعد للبداية مرة أخرى بمجرد أن يعد لي الترتيبات الضرورية. كنت في هذه الأثناء مشغولاً بالرسائل وإعداد كل شيء للبريد الصادر.

أوضحت رغبتي في رؤية عبدالله بن الوزير الذي زرته ثلاث مرات لحديث طويل خلال الثلاثة أيام لإقامتي المؤقتة في جازان. كان أسلوب تعامله ودوداً وخفيفاً كالنسيم، يفكر ويتكلم بما يشبه القفز، ولم يكن لديه الرغبة لمناقشة أي موضوع ليصل لنهاية له. لا يزال يؤكد بأن شبوة جزء من اليمن، ومعلناً أن الأطلال التي كنت قد رأيتها عند بئر حمد كانت بقايا مدينة أسسها يمني اسمه أحمد بن حسن بن قاسم في القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي). كانت المتاعب الحقيقية أنه ليس للأهالي في شبوة أو المناطق المحيطة بها، أية رغبة أن يكونوا تحت حكم الزيود. كان بالطبع مهتماً جداً بنتائج رحلتي، إلاَّ أنه تشكك في إدعائي بأنني زرت

مأرب. لم أدخل بالطبع القرية -سيكون ذلك من المستحيل تحت الظروف السائدة- غير أنني قد رأيتها وبوضوح من إحدى الربوات المجاورة وسجلت كل التفاصيل بدقة كافية لوضعها في خريطة أفضل من المتوافرة الآن. كان هو نفسه في مأرب عام ١٩٣١م للقضاء على تمرد محلي، وهو على علم بالبلاد. كان على عبدالله بن الوزير أن يظل مدة أطول في جازان إلاَّ أنه دعاني بحرارة لزيارة بلاده. أجبته بأنني يسرني ذلك إذا جاءتني الدعوة من الإمام، غير أن الدعوة لم تتحقق مطلقاً كما لم تحن الفرصة لمثل هذه الزيارة إطلاقاً. كنت مسروراً بعد عام أو عامين، أن أرسل نسخاً من كتابي إلى عبدالله وسيده الملك، الخاص بجولاتي على الأطراف الشرقية لبلادهم إلى جانب الخريطة التي نتجت عنها، وقد شكرني على هذا الأمير اليمني سيف الإسلام حسين بن يحيى، الذي حضر مؤتمر فلسطين في لندن في ربيع عام ١٩٣٩م ممثلاً لوالده.

كان الاستحمام في البحر في جازان ممتعاً كعهدي به، غير أن المد كان منخفضاً جداً في الصباح الباكر وما بعد الظهيرة، وهما الوقتان الملائمان للاستحمام. أخبرني ابن ماضي عند وصولي أن اثنين من الجيولوجيين التابعين لشركة النفط العراقية قد قضيا الليلة الماضية هنا، وغادرا في الصباح عن طريق المركب الميكني الحكومي إلى جزر فرسان. توقفت الموجة المتوسطة في الراديو من قبل يوم أو يومين وقد سلمت الجهاز إلى رجل اللاسلكي في جازان، عبدالله قاضي، على أمل أن يقوم بعمل شيء تجاهه. لم يستطع إصلاحه. وقد أستطيع الحصول على إشارات التوقيت وعلى الأخبار باستخدام الموجة الطويلة، على الرغم من أن هذه ليست مقنعة، وحتى هذه توقفت بعد قليل. أصبحت بكل الأبعاد بلا راديو، وليست لدي إشارات توقيت زمنية مع أهميتها لي، ودام ذلك طيلة الشهر الأخير من جولاتي.

كانت معجـزة أن يظل جهاز الراديو يخدمني طيلة الثمانيـة أشهر التي غطاها أصعب ترحـال دون أي مراجـعة له غيـر تلك التي قام بهـا اليهـودي في نجران، والذي كان علاجه لمزواتي قد أمكنني أن استفيد من الراديو لأكثر من شهر كامل. لم يجد الراديو أي عناية إطلاقاً حتى ذهبت الموجة المتوسطة.

لاحظت ثلاثة من شيـوخ فيفـاء الثانويين وهم جلوس على الحصـير، وذلك أثناء حضوري مجلس الحـاكم الصباحي لهذا اليوم. لقد أمـضوا الليلة في السجن المحلي، وقد أطلق سراحهم، شريطة حضورهم في الوقت المحدد لمقابلة أمير فيفاء وذلك فيما يتعلق بجريمة القتل التي تورطت فيها بعض أقسام قبائلهم. كان عليهم أن يدفعـوا الدية ومقدارها ٥٠٠ ريالٍ وغـرامة إضافيـة (نكل) بنفس المبلغ إذا لم يتمكنوا من تسديد الدية خلال الموعد المحدد لذلك.

تناولت طعام الغداء مع مدير الشرطة ووجدت عنده موظف الدخل الحكومي عبدالعزيز جميل، وبذلك تمكنت من مناقشة وترتيب احتياجاتي المالية. لقد نفدت النقـود بالفعـل خلال هذه الرحلة الأخـيـرة، في اليوم الذي يـسبق وصـولنا إلى العارضة. وقد اضطررنا إلى إسقاط اللحم من وجـبة العشاء لتلك الليلة. أعدّ لنا عبدالعزيز جـميل في اليوم الثالث (١٤ يناير) وجبة غداء لوداعنا وقـد شارك فيها شقيق الأمير، مشـاري بن ماضي، الذي ودعنا على جانب الرصيف لبداية المرحلة التالية من رحلتنا إلى الجنوب هذه المرة وعلى ظهر الشـاحنة، والتي فحصها بعناية بعد مغامراتها الأخيرة. تجمع حشد كبير للمناسبة، وكان لدى معظمهم العديد من الأسباب للسفـر إلى المضايا أو غيرها في الجنوب كان علينا أن نتـجاهل توسلاتهم لنقله الطريق، كانت الشاحنة بالكاد تكفي لنقلنا وعفشنا.

استدرنا حول الجانب الداخلي للعرن أثناء قيادتنا عبر البلدة خارجين منها عن طريق عرن متلع كنا نسير في سرعة فوق الدلتا الطينية المسطحة المتينة، أسفل قلعة أشيمة فوق عرن تل جازان على ارتفاع ١٠٠ قدم من فوقنا. كنا نبحث في الطريق عن البديل لمصرف عميق توجد به السدود على الجانبين، أقامها الأدارسة منفذاً يحصر البحر بعيداً عن جازان نفسها حينما تغمر مسطح السبخه الماء بالمد العالي في مواسم السنة المختلفة.

انطلقنا بنشاط فيما يلي هذا المانع فوق أرض منخفضة رملية من كثبان تكسوها شجيرات خفيضة، تمتد إلى مسافة إلى الداخل من ساحل البحر، الذي كان يحفه شريط واسع من مستنقع المانجروف. أصبح المنظر كئيباً ونحن نتقدم بسرعة ٢٠ ميلاً في الساعة، وتخلى ما كان يوجد من غطاء نباتي من الموقع لأمواج الرمال تتدحرج إلى البعيد ناحية البحر. تسمى هذه الأرض الرملية مغاثر وقد تكسرت حافاتها المواجهة لمستنقعات المانجروف (شورة) بالعديد من التشرخات لأسطح طينية عارية تكون أحياناً مبتلة جداً. لم تواجهنا مشاكل فوق هذه الرمال، إلاَّ في موقع واحد، وبعد ساعة من مغادرتنا لجازان وصلنا إلى قرية المضايا الكبيرة الشبيهة بخلية النحل، والتي يوجد بها زوج من الأبنية الحجرية، وقلعة متوسطة الحجم، وسمات أخرى، لم نتوقف لفحصها في هذه المناسبة وذلك لأننا كنا نرغب في الوصول إلى منطقة الحدود قبل غروب الشمس. جذبت وقفتنا القصيرة هناك لتجديد مياه الشاحنة حشداً ضخماً من القرويين، خاصة الأطفال، والتفوا من حولنا، ووجدنا صعوبة شديدة في التخلص منهم حينما رغبنا في مواصلة الرحلة. جرى حشد الأطفال وهم يقفزون من جانب إلى آخر من ورائنا ونحن

نطوف القرية فوق حفر خطرة، وسرعان ما تركناهم كلهم من ورائنا وانطلقنا فوق الصحراء الرملية التي تطعم هنا وهناك بأشجار الأراك واقفة فوق قمم الكثبان.

نقف الآن في منطقة الدلتا في مصرف أملح الذي انتشر على مراحل فوق الرمال وعبر مسارنا مع بروزات كالأصابع عريضة ومسطحة من الطين ممتدة إلى البحر. كان بعضها متيناً لقيادة السيارة من فوقه وذلك لوجود نبات خزامى البحر فوق سطحها، غير أن العارية منها كانت مبتلة وخطرة. كان أول متاعبنا هو توحلنا في مجاري آثار حركة سيارات سابقة غمرتها المياه. اقتربنا من الساحل للتخلص من هذه الموانع وكانت التلال الرملية على يسارنا فوق هضبة عالية وكانت مستنقعات المانجروف على يميننا. عبرنا سبخة وادي حمير، كما قيل لي إن هذا هو اسمه، فيه بعض الصعوبة ولكن بدون حوادث. غربت الشمس ونحن لا نزال نحاول السير ولا نزال بعيدين من محطة الوصول، وقد قررنا العمل لرخصة الحاجة والضرورة، بأن نعسكر لقضاء الليلة فوق مساحة لطيفة للكثبان الرملية، وقد جمعنا الكثير من أعواد الأشجار الخفيضة لإشعال النار، وجمعنا كذلك أجمل الرمل للنوم عليه. كنا نرى نيران معسكرات صيادي السمك طيلة الليل على حافة المانجروف، وكان مصدر قلقي الوحيد هو الراديو الذي فيما يبدو، قد رفض أن يعمل مطلقاً. استرخيت مع ألغاز الكلمات المتقاطعة في جريدة التايمز ونمت عند الساعة الحادية عشرة ليلاً.

وصل إلى معسكرنا أثناء المساء أحد شيوخ قيس واسمه حسن بن سهل – من بني مروان – وقد أحضر معه أحد الأشخاص ويدَّعي أنه ملم بالكثير من المعلومات حول البلاد. لم يكن لدينا مرشدون في جازان وكان علينا أن نتحصل عليهم في الطريق، غير أنني قمت باستيعاب القادم الجديد، تحوطاً للحوادث، وقد

أفاد كثيراً بتعرفه بسرعة على الوادي الذي عبرنا قبل قليل بأنه الجزء الأسفل من وادي تعشر. خرجنا بذلك من حدود المخلاف السليماني القديم. تجولت في الصباح بحثاً عن الطيور داخل وعلى امتداد المانجروف واستغربت أن أحد السطوح الطموية وقد تنقرت بآثار الغزلان. تذهب الغزلان في كل بلاد تهامة هذه وشمالاً حتى جدة إلى البحر للشرب. ربما ذهبت للملح أكثر منه للماء حيث لا توجد مواقع لعق محلية ترجع إليها عند الحاجة. لم يكن لدينا من الماء ما يكفي لطبخ العشاء ولذلك اكتفينا بشرب الشاي والقهوة وتناول الخبز والموز. تناولنا غداءنا في وقت متأخر في جازان ولم نكن في حاجة إلى وجبة ثقيلة. كان هنالك ندى خفيف أثناء الليل، يكفي لربط حبات الرمل. كانت هنالك كتل من الأعواد فوق السطح الطيني في صدر الشاطئ وبعض المواد الطافية التي جلبها المد، والذي تعلم أعلى مستوى له بشريط مستقيم من حطب طاف.

كان مستنقع المانجروف الذي كنت أخوض فيه إلى الركبة، مملوءاً بطيور الكروان، والزقزاق الكنتشي وطيور سواحل أخرى، وطائر هرار يبحث عن فريسته. كانت طيور الحدأة والغداف متوافرة بأعداد كبيرة تحلق فوق الأماكن التي باشر فيها الصيادون تقطيع حصيلة صيدهم من الأسماك، مخلفين وراءهم الفضلات وبقايا أخرى. بنى الصيادون لأنفسهم عششاً مؤقتة أثناء قيامهم بهذه العملية من أعواد من أشجار المانجروف ومسقوفة بالأعشاب البحرية. تكون من حولهم عادة حلقة من الأجزاء المرفوضة من الحبار طويل الذيل وغيره من الأسماك. وجدت حين عودتي إلى المعسكر أن كلاً من سعد وفرج لم يحاولا تنظيف البنادق، والتي لم يهتم بها أحد لعدة أيام، وتأخرنا تبعاً لذلك حتى يتم هذا. كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف حينما ركب الجميع الشاحنة

وتحركت بنا فوق السبخة على الشريط الساحلي، والتي كانت جيدة للسير، برغم أنها كانت رخوة في بعض الأجزاء. كان مستنقع المانجروف على يميننا عبارة عن غابة من أغصان جافة ذات اتجاهات غريبة بارزة من داخل الماء، بينما يمكن رؤية بعض قرى صيادي السمك إلى البعيد على اليسار.

ابتعدنا تدريجياً عن ساحل البحر وقد حجبه عنا شريط من تلال رملية. واصلنا السير مسافة بلا حوادث حتى بدأت، فجأة وبدون مقدمات، الشاحنة وكأنها قد انفلقت إلى جزأين. اتضح أن الأمر أقل خطورة مما اعتقدنا، ذلك لأن الجزء الخلفي من الشاحنة الذي كان مربوطاً بالحبال، قد انفصل عن الجسم العام وسقط في الطريق. كان علينا جمع الأجزاء المختلفة وشحنها فوق الجسم الرئيس للشاحنة وواصلنا رحلتنا وقد فقدنا فقط عشر دقائق. واصلنا قيادة الشاحنة فوق المسطح الطيني إلى أن وصلنا إلى فم وادٍ ينحدر من كثبان رملية مرتفعة شيئاً ما وتكسوها نباتات الأراك، والقضب والعراد.

لا أحد يعرف اسم هذا الوادي وقد أصابني الاشمئزاز من هذه الجولات التي لا يصحبني فيها مرشد مما دفعني للإعلان بأنني سوف أتوقف هنا إلى أن نعرف اسم الوادي. لم يكن هناك أحد على مد البصر، وبعد ساعة تقريباً جاء رجل وهو شبه عارٍ ويمشي مجهداً ويحمل رمحاً ومحفظة من الجلد. كان في اتجاهه من وادي ضمد إلى ميدي وأخبرنا بأن هذا المجرى ليس بالوادي وإنما هو مجرد منخفض بين الرمال. يسمى هذا المنخفض وفتحات مماثلة إلى الأمام في الحاجز الرملي خبت المغشوش من مجموعة من الثقوب المائية التي سنصلها إذا تقدمنا قليلاً. كافأت الرجل دون شعور مني بمبلغ أدهشه وواصلنا سيرنا لنصل خلال خمس دقائق إلى الثقوب المائية التي تجمَّع حولها عدد كبير من الرعاة يسقون قطعانهم. كانوا من

قرية المُوَسمّ وهي محطة وصولنا، والتي كانت على مرمى حجر إلى الخلف في الرمال.

كان لدينا الكثير من الوقت صرفنا بعضه مع هؤلاء الناس الذين كشفوا لنا عن بعض تعقيدات المسميات المحلية. يطلق اسم الموسم على المحافظة، ويطلق مراراً على قريتها الرئيسة، والتي يكون اسمها الحقيقي هو ظهر الجمل. لم يكن خبت المغشوش بأكثر من الاسم الذي يطلق على فم وادي حرض الذي ينحدر من التل وقرية بالاسم نفسه على الجانب اليمني من الحدود، بينما يطلق على الثقوب المائية أم أعتم (معتم). علمنا أيضاً أن مختلف الأودية التي عبرنا بها إلى هذا الموقع، كانت تسمى الأملح عند المضايا، وخولب الذي وصلنا إليه، وأخيراً تعشر، الذي قضينا فيه الليلة. ويبدو كل ساحل تهامة في هذه المنطقة وكأنه دلتا متصلة. تكون مياه هذا المكان مالحة ويقوم الرعاة بتعبئتها في قرب الجلود أو أحواض جلدية ويستخدم القرع وقد تم تقطيعه إلى نصفين كأكواب واسعة. ذكروا أنه توجد مياه أفضل على الجانب الجنوبي من الموسم، وواصلنا تقدمنا بعد أن قمت برصد كل هذه المعلومات، فوق أرض واسعة لحقول ذات حواجز فوق رمال متدحرجة، ووصلنا القرية خلال عشر دقائق.

تختلف قرية الموسم (أو ظهر الجمل) عن غيرها من قرى تهامة التي رأيناها في أن مساكنها دائرية ومبنية من الطين إلى ارتفاع ستة أقدام، ومسقوفة بالوتل على هيئة خلية النحل. كانت تبدو متينة برغم أن العمل كان بدائياً. ينتمي سكان القرية والمقاطعة إلى قبيلة بني مروان ومن أربعة أقسام منها هي: عريبي وعويجي وعزيبي وقيس. يرأس نقطة الشرطة إبراهيم بن حمد النفيسى، وهو خال لمدير جازان ومن مواليد حائل، دمث الأخلاق يتحدث بكثرة وميال للمساعدة ويسر. اتضح لي أنه لن

يمكنني أن أتقدم في عملي إن لم أحصل على مرشدين أكفاء لهم إلمام حقيقي بالبلاد. كانت خطوتي الأولى هي الاستغناء عن خدمات فرج الذي رجوته في جازان أن يحضر لي مرشدين حقيقيين، ولم يفعل شيئاً، وكانت النتائج كما قد وصفت. لقد وجدت شاباً مناسباً عند الآبار إلاَّ أنني رأيت أن أتطلع إلى رجال تسندهم السلطات. رفضت كل عروض الكرم والضيافة وأعلنت أنني سأرجع إلى جازان لأرسل تلغراف احتجاجاً إلى الملك. حركهم هذا القول كما يفور النحل في خليته، وسرعان ما تقدم رجلان طاعنان في السن ومحترمان ومعهم الأوامر لمرافقتنا. لم أقبلهم دون اختبار لحسن الحظ، وكشف الاختبار أن كليهما كان أعمى لا يستطيع أي منهما رؤية ما هو أبعد من القرية، وقد اختلفا في عفوية حول تعريف العلامات الأرضية التي أشرت إليهما نحوها.

كان هذا فوق احتمالي وأنا أحتج حيال غياب الجدية من جانب مدير الشرطة والرؤساء المحليين، وعليه فقد أصدرت الأوامر لإعادة كل شيء إلى الشاحنة لرحلة فورية ثم غادرنا الموسم بعد ساعتين من دخولنا لها، وخلال عشر دقائق كنا عند آبار أعتم لنسحب بعض الماء للّيلة. رأيت بلدة ميدي من الموسم وهي على الساحل ليست بالبعيد ناحية الجنوب من موقعنا، وبها قلعتها الرئيسة التي تسمى المنصورية إلى الداخل قليلاً. كانت هنالك قلعة أخرى تقع قريباً من موقعنا تسمى قلعة الجوبا. رأيت كذلك تلال حرض على مسافة ناحية الشرق ومعها القرية والتلال التي تحمل الاسم نفسه وهي محتضنة في انطواءات عند رأس الوادي، الذي يدخل ماراً بالجانب الشمالي للموسم يروي حقولها. أصبحت لدي فكرة تطبيقية للحدود في الجوار المباشر. طفنا من عند الحافة حول التلال الرملية حتى وصلنا إلى مقبرة كبيرة قديمة على حافة مسطح سبخي واسع. تسمى النصايب

والاسم مشتق من نتوء من قبابهـا المحطمة ويعزى وجودها لبني هلال. كان حجم بعض القبور فوق المألوف ومبني من بلكات كبيرة من صخر مرجاني ويتجه شرق-غرب، وكـان طول أكبرهـا الذي قمت بفحـصه يصل إلى عـشرة أقدام وعـرضه خمسة أقدام.

يمكننا رؤية الميناء الصغير الذي يسمى مرسـه والعشش المهجورة. لقرية كميلة الصغيرة. يجـري الطريق مباشرة إلى ميدي وبه عـمود حدودي، وعلى الرغم من أنني قد تجولت في شكل دائري حول الساحل لفحص كميلة ونهاية الحدود الدولية البحرية، فإنه يكون من الأفضل أن احتفظ بالوصف لها للفصل التالي فوق حدود السهل. لقد فرغنا من مدن السهل على أي حال في الوقت الحاضر.

obeikan.com